مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد9 العدد 1 / جويلية2023
ص ص 78-87

رحلة السندباد في شعر صلاح عبد الصبور
التماهي الروحي ومصارعة الأقدار

The Journey of Sinbad in the Poetry of Salah Abdel Sabour
Spiritual Identification and Wrestling Destinies

معاشو بووشمة
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة، (الجزائر)،
m.bououchema@centre-univ-mila.dz

الاستلام: 2023/02/20 القبول: 2023/06/20 النشر: 2023/07/31

ملخص:

يتناول الموضوع دواعي وطرق استخدام الرمز الأسطوري، حيث يعمد الشاعر إلى توظيف الطاقة التعبيرية والايحائية لرمز السندباد، ويهدف البحث إلى الوقوف على مدى نجاح الشاعر في تصوير تجربته في الحياة، وكيفية خلق علاقات مشابهة بين رحلة السندباد ورحلته في الحياة. وبالتالي تحميل هذه التجربة كثافة شعرية معبرا عن تجربته الشخصية ومكابدته بطريقة شبيهة بما تختزنه الأسطورة والرمز من دلالات مكثفة، وعليه فقد أفادت الدراسة من آليات المنهج البنيوي الذي يحاول رصد كيفية تضمين ملامح السندباد داخل النص والكشف عن أليات التوظيف الأسطوري من ترميز وتكثيف ، والمعبر عنه بالتماهي الروحي الذي عكس تجربة السندباد مع رحلة السفين وتطابقها مع تجربة الشاعر في مصارعته للاقدار ومختلف محطات الحياة.

الكلمات المفتاحية : صلاح عبد الصبور، الرمز، السندباد، الإيحاء، الأسطورة، التماهي

Abstract:

This topic deals with the reasons and methods of using the myth symbol, in which the poet proceeds to use the expressive and suggestive field of the symbol of Sinbad. This study aims atassessing to what extent the poet succeeded in depicting his experience in life, and how he created similar relations between Sindbad voyage and his own voyage through life? Thus, loading this experience with a poetic intensity and sensorial focus, stored by myth and symbol, and accordingly, the study dealt with the topic in a structural approach that traces how the features of Sinbad penetrated into the text and revealed the mechanisms of the employment of mythology such as absorption and dissolution, which is expressed in identification that, stored by myth and symbol, and accordingly, the study dealt with the topic in a structural approach that traces how the features of Sinbad penetrated into the text and revealed the mechanisms of the employment of mythology such as absorption and dissolution, which is expressed in identification that reflects the experience and its conformity with the process of life.

Keywords: Salah Abd al-Sabour, the symbol, al-Sindabad, allusion, legend, identification

1.مقدمة:

إن تجسير الهوة بين حاضر الشعر العربي المعاصر في شعرية التفاصيل اليومية، والمراهنة على استلهام الإرث الرمزي للميثولوجيا العربية والشرقية القديمة، تحيل البحث الأدبي إلى الكشف عن كيفية إستثمار الإنتاج الفكري

البشـري من رموز وأسـاطير، وكيف تتظافر هذه الموارد في هندسـة بنية النص الشـعري، حيث تتقاطع تيمات متنوعة وتتداخل ثقافات متعددة لتنتج خبرات الشـاعر وبـالتـالي تنعكس عبر نصـوصـه لتتشـيد معماريته بمكوناتها الأدبية والتاريخية والدينية والشعبية والأسطورية، التي تتشابك متداخلة في تكوين لحمته.

واسـتنطاقا لأي نص أدبي يمكن أن نكتشـف تناصـاته التي تشـكل جماليته وقيمته، ويتلون وجودها الحسي المولد للمعنى المسكون بالرمز والأسطورة، مستغلا طاقاتها الإيحائية والتعبيرية وحيزها التخييلي، وانعكاسـها في اللاشـعور الجمعي. و عليه تـأتي فرضـية التوصـل الى الكشـف عن قيمة الوظيفة الدلالية والجمالية التي يحققها الرمز- السـندباد في سـياق النص الشـعري، والقيم الأدبية التي يمكن أن يسـعى النص إلى توظيفها عبر مختلف القصـائد، وقد اسـتخدم الكثير من الشـعراء هذا الرمز الأسـطوري ومنهم الشـعراء التموزيون مثل البياتي والسـياب، كما تناولته بالدراسـة الكثير من الأبحاث من أمثال عزالدين إسـماعيل: الشـعر العربي المعاصـر، ظواهره وقضـاياه الفنية والمعنوية وعبد الرسـول في دراسـته: الاسطورة في شعر صلاح عبد الصبور ، وخلصت تقريبا في مجملها إلى الاسـتنطاق والاسـتلهام من معين وطاقة الرمز بوصـفه" نتاج الخيال اللاشـعوري وأنه أولي يشـبه صـور التراث والأسـاطير"((فتوح أحمد، 1984، 36) وبالتالي تضـمينه في النص الشـعري لتمنحه الروح الجمالية والطاقة التعبيرية الكفيلة بتثويره وتزيينه و تقويته.

2. دلالات توظيف الرمز الأسطوري

الغاية من البحث عن الطريقة التي ينتج بها الرمز دلالاته والتي تعد مجموع الطاقات التعبيرية المدسوسة داخله، واستعمالاته الاستعارية المتنامية بعيدا عن دلالاته النفعية المباشرة. لأن ما يستهوينا في الرمز هو طاقاته ودلالاته المضمرة، والتي يمكن أن تجسد كثافة ورمزية التجربة "أفضل طريقة للإفضاء بما لا يمكن التعبير، وهو معين لا ينضب للغموض والإيحاء بل التناقض كذلك" (فتوح أحمد،2006، 342)، وهي نفسها الدلالات التي تستعصي على الفهم والإمساك، وتجعل الفهم لعبة تنفلت كلما اقتربت منها فالرمز" لا يرتبط بزمان أو مكان، لأنه كوني، ولأنه غاية ذاته، ولأنه يتجاوز الاصطلاح والتوقيف، أي يتجاوز سكونية الدلالة وثباتها ومحدودية معناها" (مقداد، 1984، 52) وهي ما يمنح اللعبة لذتها.

الرمز بوصفه دال يأخذ صيغة التكامل والاكتفاء و يملك القدرة على توليد سلسلة لا متناهية من الدلالات المندمجة في الحقل الثقافي، فالرمز ليس معطى مسبق بل كينونة تستثمر في إضفاء الطوابع والأفكار المؤنسنة على الجوامد"إذ المعول في ذلك على استكشاف الشاعر للعلاقات الحسية التي تربط الشيء بغيره من الأشياء"(إسماعيل، 1972، 198)، ويقوم الرمز الأسطوري على تأسيس علاقات مجازية واستعارية وتشبيهية بين الأشياء، شبيهة بما يفعله الشاعر في تصوير تجربته مستعينا بتلك العلاقات المتشابهة التي تعقدها وتتضمنها اللغة الشعرية "مجموعة علاقات لغوية يخلقها الشاعر لكي تعبر عن رؤاه الخاصة، وذلك لعجز اللغة العادية المبنية على

التجريد والتعميم." (الولي، 1990 ، ص111) ، بشكل يجعل الرمز متقاطعا مع التصوير الحسي والمعنوي، والصورة الفنية في حقيقتها رمزية راكمت التجريد المعنوي إلى مستوى الرمز في تجريده وإيحائه" علاقة الرمز بالصورة ليست بالضرورة علاقة مفارقة، فقد تتعقد الصور، وتتآزر إيحائيا بحيث تبلغ درجة من التجريد تصلها بمشارف الرمز" (فتوح أحمد، 1984، 141) وعليه يهندس الرمز شبكة علاقات بين التصورات والجوامد، "...وبقدر ما تكون علاقات الواقعتين المقربتين بعيدة وصادقة بقدر ما تكون الصورة قوية وقادرة على التأثير الانفعالي ومحققة للشعر"(الولي، 1990، ص16). وهو ما يصفه صلاح عبد الصبور" القصيدة ليست مجرد مجموعة من الخواطر أو الصور أو المعلومات لكنها بناء متدامج الأجزاء" (عبد الصبور، 1977، ص32)، ويمكن استثمار هذا التقاطع بين الصورة والرمز في بنية الشعر، لتطعيمه ومنحه تلك الطاقات الإضافية الماتعة "فالفارق بين الرمز والصورة ليس في نوعية كل منهما بقدر ما هو في درجته من التركيب والتجريد فالرمز وحدته الأولى صورة حسية تشير إلى معنوي لا يقع تحت الحواس ولكن هذه الصورة بمفردها قاصرة عن الإيحاء الذي يعد سمة الرمز الجوهرية، والذي يعطيها معناها الرمزي إنما هو الأسلوب كله، أي طريقة التعبير التي استخدمت هذه الصورة وحملتها معناها الرمزي"(فتوح أحمد، 1984، 139).

يتكئ صلاح عبد الصبور في توظيفه للرمز الأسطوري على آليات حددها في الكثير من كتاباته وعليه يمكن ملامسة هذه العمليات في بنية القصيدة الشعرية الحديثة " أنني أحاول دائما أن أستخرج الثيمة في الأسطورة وأن أعيد عرضها على تجربتي الخاصة بغية إكساب هذه التجربة بعدها الموضوعي ولكنى أكره دائما الصاق الأسماء...هو إخفاء هذه المادة تحت السطح الظاهري للقصيدة بحيث تختفي إلا عند الأعين النافذة الناقدة" (عبد الصبور، 1977، ص34)، وهي الرؤية التي يمكن اعتبارها فلسفة التناص والتماهي لدى صلاح عبد الصبور، و يمكن تلخيص أهم توجهات الشاعر في التعامل مع النصوص السابقة وتعالقها إلى قسمين :

- ينبني على امتصاص التيمة من الأسطورة وغلغلتها في بنية القصيدة، وقد أشار إلى ذلك في كتاباته.

- الاسقاط الفكري للأساطير والفلسفة الميثولوجية في أبعادها الإيحائية لخدمة الموقف الشعري والمراد توصيله للمتلقي، والمرتبطة أساسا بقضايا الانسان ومواجهته لمصيره" ولا أظن أن من الجدير بالشاعر عندئذ أن يلصق هذه الأشياء إلصاقا بقصيدته،بل لابد أن تنحل هذه المادة إلى عناصرها الأولى ،من وجهة نظر الشاعر ،التي تختلف عن وجهة نظر الدراسة الموضوعية " (عبد الصبور، 1972، 62)، وهو التصور الذي سعى إلى تجسيده في نصوصه الشعرية ومقالاته الأدبية والنقدية التي نشرت في كتب مختلفة، وفي مجلات متخصصة في تلك الفترة من تاريخ مصر الأدبي.

3. اكتشاف السندباد وآليات توظيفه

تمثل شخصية السندباد أكثر شخصيات ألف ليلة وليلة شهرة، وقد وظفت في الآداب العالمية بمختلف الصور، ولم يتوان الأدب العربي عن مسايرة الآداب العالمية في استثمارها لشخصيات ألف ليلة وليلة ومنها شخصية

السندباد، وكان صلاح عبد الصبور سباقا في توظيف أسطورة رحلة السندباء، حيث اعترف أحمد عبد المعطي حجازي لصلاح عبد الصبور بأسبقيته في استعمال هذا الرمز و الأسطورة "لعل أول من اكتشف هذا الرمز-السندباد- هو الشاعر صلاح عبد الصبور ،ثم تبناه بعد ذلك عدة شعراء."(أبو غالي مختار علي، 1996، ص185)، ويعد صلاح عبد الصبور أكثر الشعراء إحتفاء به واستخداما له، ويمكن لكل قارئ لشعر صلاح عبد الصبور أن يستشف مدى تفاعله وتناغمه مع رمز السندباد في قصائده.

إن الدارس لمختلف دواوين الشاعر يدرك وقع وهيمنة السندباد على تفكير الشاعر حيث لا يفتأ يذكره ويلمح إليه، وذلك منذ ظهور ديوانه الأول الناس في بلادي سنة1957 ، وفي أول قصائده رحلة في الليل، شكل السندباد الرمز المحوري لمقاطعها وحمل أحدها عنوان السندباد. وأنتج صلاح عبد الصبور عدة قصائد وفي دواوين مختلفة تلت ديوانه الأول مشحونة بالطاقة الإيحائية لأوجه السندباد في صراعاته ورحلاته، إلى أن أبدع صلاح عبد الصبور في القصيدة التي حملت عنوان: "حين أوغل السندباد وعاد" ونشرها قبل موته بسنتين، فكانت بمثابة رحلة النهاية ومرفأه الأخير.

1.3 رحلة السفر إلى الماضي (الإستنطاق والامتصاص):

يسترجع الشاعر الماضي من خلال ذكريات الطفولة والمخاوف التي كانت تراود أحلامه في الليالي المظلمة كالغول والموت والعاصفة والسندباد، وإذا بالشاعر يلمح ويحيل القارئ إلى إدراكه ومعرفته بقصة السندباد التي كانت ترويها له أمه في طفولته:

وفي الليل كنت أنام على حجر أمي
وأحلم في غفوتي بالبشر
وبالموت حين يدك الحياة
وبالسندباد وبالعاصفة
وبالغول في قصره المارد
فأصرخ رعبا وتهتف أمي باسم النبي
(عبد الصبور، 1972، ص60).

وتأسيسا على الإدراك المسبق للشاعر بفحوى هذه القصة وتصويرها لعذاب الإنسان ومعاناته، ورحلته في البحث عن عوالم أكثر سلاما وأمنا، مما حذا بالشاعر إلى استلهام هذه الأصوات في أوجهها المتعددة "يستجيب لحركات داخل التجربة الشعورية لصلاح عبد الصبور في هذه القصيدة فالحركة الأولى هي امتزاج بعد تداخل الرحلة(الداية، 1996، ص215)، ليصور انطلاقا من هذا التوجه لحركة الذهاب والإياب أي العودة مساء والانطلاق صباحا.

في أخر المساء عاد السندباد
ليرسي السفين
وفي الصباح يعقد الندمان مجلس الندم
ليسمعوا حكاية الضياع في بحر العدم
(عبد الصبور، 1977، ص16).

وفي خطوة تالية من خلال الحكاية داخل القصيدة يصور رحلة الشقاء وحجم المتاعب، رغم أن السندباء مثل الروح الإنسانية لا تستطيعالثبات والجمود يقتلها.

السندباد:
لاتحك للرفيق عن مخاطر الطريق
إن قلت للصاحي :انتشيت .قال :كيف؟
(السندباد كالإعصار إن يهدأ يمت).

(عبد الصبور، 1972، ص16).

وكي تتواشج أحلامه مع عذاب نفسه وأحلامها وتجربته يعيد نسج تفاصيل الحلم "والحركة الثالثة هي مجاورة للحكاية –الحلم":

السندباد
في آخر المساء يمتلئ الوساد بالورق
كوجه فارميت طلاسم الخطوط
وينضج الجبين بالعرق.

(عبد الصبور، 1972، ص16).

وفي استنطاق الحالات السابقة المتراكمة والمتواشجة كان "..السندباد موجوداً:

أي أن الشاعر خلق الشخصية وحملها تجربته المعاصرة في الحركة الأولى

- وحين استوت على سوقها تلبس بها كقناع في الحركة الثانية فأصبح هو هي،

- وبعد أن تقنع بها حاول إغراء الجماعة أن تصنع صنيعه فلم تستجب لدعواه.." (أبو غالي، 1996، ص187).

عبر هذه الآليات يستفيد الشاعر من البعد الرمزي والشحنات الدلالية العميقة والمتراكمة ضمن افق الرمز وبنيته الداخلية ليمرر ويغلل ما يبتغي قوله ورسمه في الاذهان، وتبليغه للأنفس.

2.3 رمزية الرحلة والتماهي الروحي(التذويب):

تشد الرحلة الأنظار والأنفس إليها عبر مراحل تبلورها، وهي شبيه بالحلم ويتم تصويرها من خلال صور استعارية ومجازية، وكثيرا ما تكون جلسات الندماء والأصدقاء أشبه بالرحلة في العوالم المختلفة عبر التذكر والحنين، وتتجسد الرحلة الروحية عبر السرد المتوالي للأحداث والقلق الالنفسي المرافق لمختلف مراحل الحياة، وطرق اغتناء التجربة الحسية والمعرفية بمختلف مراحل وتجارب الحياة في حكايات متشابكة متداخلة تتعدى حدود الزمان والمكان في بعديها التخيلي والتاريخي فهي تتقاطع مع الأسطورة وتتشابك مع الرمز في تكثيفهما وتكديسهما لمختلف المدركات والتجارب.

يثير الشاعر لدى ندماءه رغبة الاكتشاف حين يدعوهم إلى محاكاة سيرة الملاح في البحار وتخيلها، من خلال تخيل رحلة السندباء ومحاولة تمثلها، ليقفوا على ما يعانيه الملاح ويكابده من لوعة الفراق، ومراجعة الذكريات قبل الوداع، وانتظار الموت، وإن كان الموت هنا يعني موت الفكر والطموح والإرادة قبل الموت الجسدي:

الندامى :
هذا محال سندباد أن نجوب في البلاد
ملاحنا هوى إلى قاع السفين، واستكان
وجاش بالبكا بلا دمع.... بلا لسان
ملاحنا مات قبيل الموت، حين ودع الأصحاب
... والأحباب والزمان والمكان

(عبد الصبور، 1972، ص17).

استند الشاعر في توظيف رمز السندباء على استثمار ملامح السندباء انطلاقا من تصوير ملامح وأوجه الملاح والسفين دون تصريح، بينما يصرح عن مغزى الرحلة والشعور المرافق وشجاعته وخلفقان قلبه في مقطع آخر:

يا شيخنا الملاح..
..قلبك الجريء كان ثباتاً فما له استطير؟
.....
أشار بالأصابع الملوية الأعناق نحو المشرق البعيد..

(عبد الصبور، 1972، ص17). مستمرا تشابه الملامح، وجملة التقاطع والتشارك في المسار والاتجاه.

ويضيف في سطور أخرى من ديوانه كي يكثف التجربة ويشحنها بمزيد من الطاقة الإيحائية والقوة التعبيرية، واصفا مختلف مراحل الرحلة وما يمكن أن يلاقيه السفين في طريق الرحلة، مواجها الموت المحدق به من كل جانب فقال:

هذي جبال الملح والقصدير
فكل مركب تجيئها تدور
تحطمها الصخور
.....
ملاح هذا العصر سيد البحار
لأنه يعيش دون أن يريق نقطة من دم
لأنه يموت قبل أن يصارع التيار

(عبد الصبور، 1972، ص152).

ومن أجل تجنب الإخفاق يصور تراكمات طبقات التجربة الشعرية من زوايا مختلفة من الصور في مشهدية أسطورية مفعمة بالتوتر والتطلع:

أتأهب للميعاد –الرحلة –في آخر كل مساء
أتقرى أورادي، أتزيا شاراتي
في أهداب الغيم، أنشر أشرعتي
أتلقى في صفحتها نذر الريح، نبوءات الأنباء

(عبد الصبور، 1972، ص152).

يروم الشاعر عبر هذه المراكمة التصويرية تكثيف المشهد وتقوية الصور الذهنية لرسم معالم الرحلة والتماهي النفسي، يوثق مشاهد ذهنية وصور شعرية ذات كثافة تعبيرية نابعة من التجارب السابقة لدفع الملتقي إلى محاكاة التجربة نفسها، التي قد تعيد إحياء رماد الذكرى وتبعث الروح فيها:

البحارة يصطخبون
الملاحون.. الفئران.. التذكارات.. المحبوسون
في أوردة المركب يضطربون
وأخوض رماد الآفاق
إلى جزر المعلوم المجهول الدكناء
يتكشف تحتي مرج الموج، وتمضى بي الريح رخاء

(عبد الصبور، 1986، ص65).

يشير إلى النهاية، أو العودة الحتمية من الرحلة، رحلة السندباد التي تشبه رحلة الحياة، يكون فيها التجديف كناية رمزية عن تجارب الحياة اليومية ومقارعة الصعاب، وتكون مشاق الحياة مثل تلاطم الأمواج أمام السفين.

4. النهاية وتراكمات التجربة

وبعد طول تأمل وحياة طويلة وممارسة شعرية متفاوتة مكتنزة بالعمق الفكري والاطلاع الواسع، زيادة على التجارب الفعلية والثقافات المختلفة من سياحة وسياسة وطول عمر في التجوال، وتنشر قصيدة الشاعر الأخيرة في حياته الفنية الموسومة (عندما أوغل السندباد وعاد)، حيث يشير العنوان إلى"وظيفة التعيين (de'signation)،وتحديد المضمون (indication du contenu) وإغراء الجمهور (se'ductiondupublic)"(بلعابد، 2008ن 74)، و لتكشف تصور الشاعر وموقفه من الحياة، والتي استغرق فيها رمز السندباد القصيدة كاملة وجعلها "تستوعب الرؤية الشعرية في كل قصيدة من القصائد وتتحرك في إطارها كل الأدوات الشعرية الأخرى في القصيدة "(عشري زايد، 1997، 133)، وإذا به يصور اقترابه من اللحظة الأخيرة وتوقف الزمن ممثلا في توقف السفينة بعد تجديف طويل وممل بدون جدوى:

كل شئ تجلى له و تكشف..
كان إنحدار المياه إلى منبع النهر حتما،
و صار الرحيل
مللا يستطيل

ثبت السندباد مجاديفه، و أدار الشراع عن
الريح
وإستعد ليوم المعاد
(عبد الصبور، 1979، ص98).

على عكس ما كان يبدو، فقد أصبحت الرحلة كشفا وإكتشافا سبر فيها أغوار العالم والوقائع والأزمنة، وصارت بالتالي معرفة تراكمت وتكدست فخلقت التجربة المريرة والقاسية، بعدما كانت مجرد افق أو رؤية ضبابية غامضة، شبيهة بمراحل الحياة بكل عمقها وطولها:

فى فصول الرحيل الطويل
عرف السندباد الصباحات
عرف السندباد الأماسي
(عبد الصبور صلاح، 1979، ص98).

وحيث كان الكون جميلا مبشرا، ومتناغما، وكأن دورة الحياة لم تكتمل إلا باكتمال حركة السندباد في آفاق البحار الممتدة، وعبر شريط الزمن المتسلسل، تعبيرا عن عمق التجربة وكثافتها وتعدد ألوانها، وبلوغها عنان السماء، اشبه بالامتلاء الروحي والشطحات الصوفية، حيث تغتني التجربة الإنسانية وتملئ الروح بألوان شبيه بألوان البحر الممتد في الارجاء:

ما إن بعض الصباحات يتسع البحر فيه،
ويصبح كونا من الطيب والعشب، والشمس
مجمرة تتدلى سلاسلها الذهبية، ثم
يعانقها الغيم، تبتل حافتها بالندى،
كاشفا سر ألوانها السبعة المستكنة فيها
يخرج البحر ألوانه
يمزج البحر ألوانه.
(عبد الصبور، 1979، ص98).

وفي تباري وتسابق محتدم، تبدو فرحة الكشف والتطلع إلى الأفق العالي رحلة لا تنتهي بمجرد الوصول إلى المرفأ، لأن التجربة تغتني وتطالب بالمزيد، تلك الفسيفساء من التراكم في التجربة تبدد الوجوم والتجهم، وتحيي التدفق والتماهي مع خلاصة التجربة، إنها مثل إيحاء الموسيقى وتناغم أصوات القيتار في توالي وتتابع أنغامه وهديلها:

يتبارى مع الشمس وصلا وعشقا، ويبذل
حتى تحل العرى، ويذوب الوجوم
زبرجدة يصبح البحر، ينفث لؤلؤه
الزبدي، و يملؤك الفرح يا سندباد كما
امتلأت حبة بالرحيق، وتمثل للنزع والنسم
صدرك قيثارة تتناوب فيها أصابعها الخشنات
الرقيقات
(عبد الصبور، 1979، ص98).

وفي الأخير تتحقق التجربة وينال المراد وتكتمل الفرحة بالانتشاء والتماهي، بعد طول سفر وتجوال واكتشاف، وتصير نقطة تحول مركزية والامتلاء الفكري والروحي المتجسد في النهاية وخاتمة الرحلة،" وقد ظل معنى الرحلة ينمو في نفسي، منذ ذلك الحين، ويكتسب أبعاداً جديدة من المفارقة والنصب، والولاء فيها للشعر، والرحلة تبدأ بعد التأهب الساكن لزورة الشعر التي لا تجيء، فيخرج إليه الشاعر طالباً عطاءه، بعد أن ينزع عن نفسه كل شارات الحياة متجرداً كتجرد الحاج إلى قدس الأقداس.." (عبد الصبور، 1972، 17)، والامتلاء من تحقق الأحلام وارتواء الشغف بما رات عينه وما اكتشف من معارف واشراق نفسي وروحي:

ينتشى السندباد و بمرأى الزمان يعود
إليه، وينفى ويثبت فيما حوت عينه من رؤى،
و ما احتملت من ظلال البلاد
وما احتملت من شجى كامن أو أسى مستعاد

ويبحر في عرقه ودماه، و يرسي بشط
الزمان البعيد القديم.
(عبد الصبور، 1979، ص98).

وإذا بالشاعر وكأنه يستعيد ذكريات الطفولة والحنين إلى الماضي السحيق، طفولية التجربة وبدايتها، حيث الطمأنينة وبساطة المواقف، مقابل تعقد التجربة الإنسانية في بلوغ مراحل متقدمة من العمر، هذه الأسئلة الوجودية يلخصها السندباء عبر رحلة تذكار ومن خلال عملية استرجاع للذكريات المتكدسة في اللاوعي:

وتعود للسندباد طفولته، وتعود الحقول
حقولا،ويعود الغدير ليمتد كي تتأرجح في
جانبيه الحقول
وتعود السكينه كي تتمدد فوق الغدير
ونعود نجوم المساء
لكي تتناثر فوق ملاءتها أرخبيلا
يطوف بين جزائره السندباد
زمنا مستعاد
(عبد الصبو، 1979، ص99).

ويسترسل بغبطة الطفل والأحلام المستعادة، متمثلا صورة الطفل في حيويته، وعفويته، وانطلاقته، وقلبه الملائكي، في تصوير يثير الدهشة جمالية، يتوقف عندها القارئ، حيث يمثل جري الطفل بحركة تسارع الايام والسفينه في البحر، وتعكس العودة مثل عودة الطفل ليجد حضن أمه ونهديها ترويه حليبا ودفئا:

ويعدو.. ويعدو
يضحك السندباد لصورته، وهو يعدو
وتصلصل في قلبه الطفل أجراسه الذهبية،
يعدو..ويعدو
ويعود إليه صباه رغيفا، ونهدين
كانا يميلان في صوره، يلثمان معا بين خاصرتيه
..وتقضي زمان الصبا
(عبد الصبور، 1979، ص99).

ثم يشرع في التهاوي والسقوط عبر منحدرات التجربة القاسية، وروتين الايام وملل التكرار، حينها يبدأ الطفل في فقدان حماسه وحيويه وبراءة السؤال، العودة إلى الانكماش حيث التراجع والأفول والغياب والفراغ:

كان بعض الصباحات ينكمش البحر فيه،
ويغدو أديما من الجلد، أسود مغضوضنا
...
..أهذا هو البحر ؟
(عبد الصبور، 1979، ص100).

وعلى النقيض من ذلك يستحيل أن يعيد التحسر أوالتذكر إلى أعماق نفسه عبق الذكريات وسحرها، ويستحيل أن يسترجع ما وجده من إشراق وتغني بالحياة واستبشار بها:

يمتطي السندباد الظلام المنقط بالضوء،
يبحر نحو مياه السموات، وحدك تمضي
...
وجدت..فقدت..وجدت..
ورأيت الذى قد سمعت
وسمعت الذى قد رأيت
(عبد الصبور، 1979، ص100).

وأخير الاستسلام للأسى، رغم محاولة التماسك والتمسك بالذكريات الباهتة، وتتسلل إليه الحسرة والأسى والحيرة والتساؤل المرير، وتفعل فعلها لتطفئ شموع الرحلة التنويرية التي أضاءت حياته ردها من الزمن بما شكلته من شغف وتمدد نحو الافغاق وتطلعات شكلت امتلاءه الروحي والنفسي:

نفسك مثقلة بالهموم ،أناخ
عليك المساء و أثقل حتى أنكسرت شجى

وانحللت هباء
ويثقل نفسك ما حملت من رؤى
.....

وما احتملت من شجى كامن، أو أسى مستعاد (عبد الصبور، 1979، ص101).

تقفل الرحلة وتنهي التجربة بعد شد ومد، تتراوح بين أفق سامق وروح متطلعة ثم خفوت ونفس متحسرة. وأمام هذا التوظيف والتماهي الفكري، والفلسفي يغلغل الشاعر أفكارا فلسفية"إن التجربة الشعورية لا تعني بالضرورة التجربة العاطفية الشخصية وحدها، وانما تعني كل فكرة عقلية أثرت في رؤية الانسان للكون او الكائنات. فضلا عن الأحداث المعاينة، التي تدفع الشاعر او الفنان الى التفكير"(عبدالصبور،1977، ص56). أو تصوره للعلاقة الوجودية بين الموت والانسان "...الانسان والكون موجودان متلازمان، فليس الكون الا صورته في ذهن الانسان متشكلة في اللغة الانسانية..."2(عبد الصبور، 1977، ص57). ولا يخفى على دارس تأثره بفلاسفة الغرب في جل كتاباته وحتى فلاسفة العرب والصوفية، مما انعكس على فلسفته الإشراقية تارة وأسئلته الوجودية في فترات متأخرة من حياته، ويظهر صدى تأثره بالثقافة اليونانية والفلسفة الشرقية ، وتبرز مدى نجاحه في محاولاته استثمارها وتوظيفها لإمتصاص المفيد منها واستخدامه بالشكل الذي يخدم الغرض من الشعر في تحريك النفوس وتثوير اللغة، وبالتالي التأثير في المتلقي، من هذا المنظور يظل شعر صلاح عبد الصبور تشكيلا متداخلا من التجربة الحسية والمنطق العقلي، ملفوفة بالعقل الأسطوري، ونسيج متجانس من التصورات على المستوى الشعري. وهو ما يدعو إلى رفع رؤية الشاعر إلى مستوى منطق وحكمة الفيلسوف.

5. خاتمة:

وعليه يستخلص من تجربة صلاح عبد الصبور انطلاقا من محاولته استلهام تجربة السندباء في مختلف دواوينه الشعرية:

- تصوير مراحل العمر وتشبيهها بالرحلة البحرية والتجديف المتواصل كما فعل السندباء، وقد استفاد من تجربته وقد شبه الشاعر مراحل حياته بمراحل سفر السندباد.
- المزج بين الصورة الفنية والرمز الذي تتضمنه تجربة السندباد في رحلته بما لهما من طاقات تعبيرية توحي وتنقل بل وتعكطس التجربة في تمثيل وتقريب الدلالات التي يريد الشاعر تصويرها ونقلها عن تجربته وحياته.
- تصوير مختلف المشاهد بشكل تراكمي مكثف يعكس القوة في شحن التجربة الإنسانية الواقعية ، وكيف تنعكس تماهيا معرفيا يستخلص من مراحل ونتائج تجربة السندباد وتطابقها مع تجربة الشاعر.
- الاستعانة بآليات التوظيف الأسطوري من مطاوعة الأسطورة ورموزها وقابليتها للاقتباس والالاستخلاص وقدرتها على نقل وعكس التجارب.
- توظيف الرموز ومنها السندباد خاصة كفيل بتجسيد ومطابقة التجربة الإنسانية في تماهيها وتمثلها للمعرفة البشرية، وتكثيف مشهدية الرحلة البحرية وتشابهها مع رحلة الحياة بمختلف اطوارها.
- عكست تجربة الشاعر في توظيف الرمز القدرة الايحائية للرمز من خلال قدرته على تكثيف وشحن الدلالات وإقناع القارئ عبر التصوير

الفني لمختلف مراحل رحلة السندباء التي تقابلها رحلة العمر بالنسبة للشاعر.

6. قائمة المراجع:

1. إسماعيل عز الدين، (1972)، الشعر العربي المعاصر، ظواهره وقضاياه الفنية والمعنوية، دار العودة، لبنان.
2. الداية فايز، (1996)، جماليات الأسلوب، دار الفكر، سوريا.
3. فتوح أحمد محمد، 1984، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، دار المعارف، مصر.
4. فتوح أحمد محمد، 2006، الحداثة الشعرية، دار غريب للطباعة والنشر، مصر.
5. عبد الحق بلعابد، 2008، عتبات جيرار جينت من النص إلى المناص، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان.
6. عبد الصبور صلاح،(1986) الإبحار في الذاكرة، دار الشروق، لبنان.
7. عبد الصبور صلاح، (1977)، حياتي في الشعر، دار العودة، لبنان.
8. عبد الصبور صلاح،(1972)، الناس في بلادي ، دار العودة ، لبنان.
9. عشري زايد علي، (1997)، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة الشباب، مصر.
10. مقداد قاسم، 1984)، هندسة المعنى في السرد الأسطوري الملحمي، دار السؤال للطباعة والنشر، سوريا
11. الولي محمد، (1990)، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، لبنان.

المقالات:

1. عبد الصبور صلاح، (1979)، عندما أوغل السندباد وعاد، مجلة العربي، الكويت، العدد32، الصفحات 98-99-100.
2. أبو غالي مختار علي، (1996)، سندباد صلاح عبد الصبور، مجلة عالم الفكر، مج24 (العدد4). الصفحات 186-187.